

مُشْكَلَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

و

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

مَعَ مَقَدِّمَةٍ فِي التَّفْسِيرِ وَثَلَاثَةِ مَقَالَاتٍ

لِلْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ

مَنْشُورَاتُ دَارِ مَكْتَبَةِ الْحَيَاةِ - بَيْرُوتَ

مشكلات القرآن الكريم

1979

خطبة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لمن علم الاميين بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، وصلاة وسلاماً
على سيدنا محمد المبعوث رحمة لجميع الامم ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد فان القرآن هو هداية الله العظمى لعباده صلح باتباعه من لم
يعرف من قبله اصلاحاً ، وأفلح به من لم يجد من دونه فلاحاً ، وقد
أنشأ المسلمون يشعرون في هذه الايام بأنهم ما فقدوا مجد سلفهم
الصالحين ، وتلك السعادة التي كانت لأبائهم الاولين ، الا لأنهم لم يهتدوا
به كهدايتهم ، ولم يأخذوه بقوة كأخذهم ، ورجع طلاب الإصلاح فيهم
الى قاعدة الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وهي « لا يصلح آخر
هذه الامة الا بما صلح به أولها » ورأوا الامة في حاجة شديدة الى فهم

القرآن من حيث كونه هادياً الى السعادة ومرشداً الى كمال العمران الاجتماعي .

ومن فضل الله تعالى على الانسان انه لا يستعد لشيء من الخير الا ويفيضة عليه بفضله وكرمه فألهم (محمداً عبده) أن يفتح للمسلمين هذا الباب ، وهو عبد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله إماماً لأولي الألباب ، فأنشأ يفسر القرآن على هذا الوجه في الجامع الأزهر الشريف في مجالس يحضرها العلماء والطلاب وكثير من الوجهاء ورجال الحكومة وأجمع أهل الفضل على أن هذا التفسير هو الذي ينفخ روح الحياة المليمة في المسلمين وأنه يجب نشره في جميع الاقطار ورغب الي كثير من أهل القطر المصري وغيره أن أنشر في « المنار » خلاصة ما يقرره الاستاذ في الدرس لأن المنار هو المجلة الدينية الوحيدة المنتشرة في الأقطار فوافقت رغبتهم ورغبتني بل علمت ان هذا واجب عليّ وان المنار ما انشأ الا لمثله فطفقت أكتب خلاصة التفسير وأنشرها في المنار متتابعة بعد عرضها على الامام المفسر واجازتها من لدنه ثم توسعت في التفسير على هذه الطريقة فصرت أورد فيه ما أعرف لغيره وما يفتح الله عليّ به من ضروب البيان للآيات واستخراج العبر منها ولكن مع التصريح بما

اختاره هو أو انفرد به مع عدم الخروج عن طريقته التي ذكرناها في مقدمة التفسير ومع أجازته ذلك ورضاه به .

وبعد أن تم تفسير الفاتحة رأيت الرغبات متوجهة الى طبعه في كتاب على حدة لان هذه السورة هي التي لا يجهلها مسلم في الدنيا لانها من فرائض الصلاة وأركانها ولانه أجمل فيها ما فصل في الكتاب كله تفصيلاً . فعزمت على تجريده من « المنار » وطبعه على حدة ليعم نشره وينتفع به من لم يقرأ المجلة فأنفذت ذلك بمساعدة أحد الاخوان بعد عرض تفسيرها ثانية على أستاذنا في حياته وإجازته وتصحيحه وزيادته بعض فوائد فيه . ورأينا أن نضم الى تفسير الفاتحة مقدمة التفسير وتفسير بعض الآيات التي أشكل على العلماء حلها لأنها من المتشابهات التي فتن المسلمين بها أهل التأويل وأكثر القدح بسببها المخالفون لنا في الدين ، وهي :

١ - ما يتعلق بنسبة افعال العبد اليه تارة والى الله تعالى تارة أخرى بما يوهم التناقض في قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وقوله عز وجل « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ » .

٢ — ما استدلوأ به على مسئلة الغرائق الشهيرة القادحة في الثقة بالوحي لو صحت .

٣ — ما ورد في شأن تطليق زيد بن حارثة زينب بنت جحش رضي الله عنهما وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بها لحكمة ابطال سنة التبنى السيئة . وقد كتب الاستاذ الامام تفسير هذه الآيات بقلمه كتابة حلت عقد كل اشكال ونشرت في المنار داحضة للشبهات ، منيرة للظلمات ، قامعة للأباطيل ، هادمة للأضاليل .

وقد نفذت الطبعة الاولى ولا يزال الناس يكثرون من طلبها لا سيما بعد وفاة الاستاذ الامام عليه الرضوان الذي رزى به المسلمون في هذا العام فان الجماهير قد ذعروا لانطفاء تلك الانوار ، فطفقوا يلتمسون ما لمصدرها من الآثار ، وما كان اقتبسه منه تلاميذه ومريدوه ، وحفظه عنه أنصاره ومحبه ، ومن أجله تفسير الفاتحة الذي اقتبسه هذا الفقير عنه ، وما ألحق به ، مما كتبه بيده ، فها أنا ذا أعيد طبعه الآن بزيادة بعض الفوائد ، والايضاح لبعض المسائل ، وكنت اقترحت ذلك على الامام فوعده به ، واخترمه الاجل دون انجازه ، رحمه الله وهدانا الى طريقه ، ووهبنا مثل تحريره وتحقيقه ، آمين .

(محمد رشيد رضا)

مقدمة التفسير

فهم القرآن بالتعقل والتدبر . للتفسير وجوه شتى . القرآن
حجة قائمة الى يوم القيامة ولا بد لكل مسلم أن يكون له من
فهمه نصيب بقدر طاقته واستعداده . مراتب التفسير
وشروطه . ما الذي يجب على الناس من التفسير . التفسير
فرض كفاية . الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده .
جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الأولى .
تأثير القرآن العظيم واعتناء العلماء الاولين باللغة العربية .

* * *

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب
الامور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لا ينبغي ان يمتنع الناس عن
طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن القرآن كلام سماوي تنزل من
حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها على قلب أكمل الأنبياء وهو يشتمل
على معارف عالية . ومطالب سامية . لا يشرف عليها إلا اصحاب النفوس

الزاكية والعقول الصافية . وان الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال .
الفائضين من حضرة الكمال . ما يأخذ بتقليده . ويكاد يحول دون مطلوبه .
ولكن الله تعالى خفف علينا الامر بأن امرنا بالفهم والتعقل لكلامه
لانه انما انزل الكتاب نوراً وهدى مبيناً للناس شرائعهم وأحكامهم ولا
يكون كذلك إلا اذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد
الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فان هذا هو
المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله .

التفسير له وجوه شتى :

(أحدها) النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من
أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازته على غيره من القول .
سلك هذا المسلك الزمخشري وقد ألم بشيء من المقاصد الاخرى ونحا
نحوه آخرون .

(ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه
وما تحتمله الالفاظ منها .

(ثالثها) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ما شأوا من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل .

(رابعها) غريب القرآن .

(خامسها) الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها .

(سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة الرافضين ومحااجة المختلفين وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع .

(سابعها) المواعظ والرقائق وقد مزجها المدين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن .

(ثامنها) ما يسمونه بالإشارة وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر

محيي الدين بن عربي . وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي لهذا كان الذي نعني به من التفسير هو ما سبق ذكره ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة الى التفسير والنظر في القرآن لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منها فما علينا الا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على ما فيه من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي ﷺ الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم .

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هي أقل ما جاء في القرآن وان فيه من التهذيب ودعوة الأرواح الى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية

ما لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر وما هو أجدر بالدخول في
الفقه الحقيقي ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن . وفيما أخذ منه
كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ولكن سلطان القرآن على
نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته ولا
يساهمه فيه كلام كما ان الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام،
ولم يفصح عنها عالم ولا إمام ، ثم ان أئمة الدين قالوا ان القرآن سيبقى
حجة على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة لحديث « والقرآن حجة
لك أو عليك » ولا يعقل هذا إلا بفهمه والاصابة من حكمته وحكمه .

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه الخطاب اليهم
لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد النوع الانساني الذي أنزل
القرآن لهديته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل انه
يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه
لم يأتنا من الله وصي بوجوب أتباعه لا جملة ولا تفصيلاً ؟ كلا أنه يجب
على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين
عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون
الذين هم في صلاتهم خاشعون » الخ ما يعطيه الظاهر من الآيات وأن الذين
جمعت أوصافهم في الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى

ويكفي في معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والاقبال على ما فيه فائدة له دينية أو أخروية وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن إتيان الفاحشة وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدي حدود الله المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ومن أهل أي لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهي من فروض الكفاية .

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالاجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بامور :

أحدها — فهم حقائق الالفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكثف بقول فلان وفهم فلان فان كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم

غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظ التأويل
اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء في القرآن
بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل^(١) يجب
على من يريد الفهم الصحيح ان يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة
ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات
القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الاولى^(٢)
فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر
نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في
مواضع منه وينظر فيه فرما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية (سياًتي
تفسيره في الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية
فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا أن القرآن يُفسر بعضه

(١) لا أتذكر أن الاستاذ الامام ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة وما
يعد به (أي القرآن) من المثوبة والعقوبة .

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه في القرآن غالباً الناصر والموالي وأولياء الله
أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى وقد اُصطلحوا بعد ذلك على أن الاولياء
صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء
الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى .

ببعض وأن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته .

ثانيها — الاساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الاساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكتته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه .

نعم اننا لا نتسامى الى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة . ويحتاج في هذا الى علم الاعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع . أتخسبون أن ذلك كان طبعياً لهم ؟ كلا وانما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم ولو كان طبعياً ذاتياً لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة .

ثالثها — علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله

آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره. بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الامم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا الى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الاستاذ الامام : أنا لا أعقل كيف يمكن لاحد أن يفسر قوله تعالى «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» الآية— وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل كانت نافعة أم ضارّة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم^(١) .

أجمل القرآن الكلام عن الامم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والانفس وهو اجمال صادر عن أحاط

(١) كتب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى تفسيراً لهذه الآية جاء فيه بما لا يوجد في كتاب ونشر في الجزء الثاني من مجلد المنار الثامن أي مجلد سنة ١٣٢٣

بكل شيء علماً وأمرنا بالنظر والتفكير والسير في الارض لنفهم اجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً ولو اكتفين من علم الكون بنظرة في ظاهره لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة .

رابعها — العلم يوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه للناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم واسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبخته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً لغيرهم ان الناس كانوا على باطل وان القرآن دحض أباطيلهم في الجملة ؟ كلا .

خامسها — العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها ، فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان :

أحدهما — جافٌ مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمي اليه تلك العبارات والاشارات

من النكت الفنية وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما :

ثانيهما — وهو التفسير الذي قلنا انه يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل ان تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله « هدى ورحمة » ونحوهما من الاوصاف . فالقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتداء بالقرآن .

قال الاستاذ الامام وهذا هو الغرض الأول الذي ارمي اليه في قراءة التفسير .

وتكلم الاستاذ الامام ايضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن — من العراق الى نهاية بلاد مراكش — بالنسبة الى العرب في لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهو لاء الأقوام اشد حاجة الى التفسير وفهم

القرآن من المسلمين الأولين لا سيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدى بكتابة التفسير وأحسن المسلمون بشدة حاجتهم اليه ولا شك ان من يأتي بعدنا يكون احوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا نهضة لاحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعدنا أحسن حالاً منا.

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لانفسهم معنى تستقر عليه افهامهم في العلم بمعاني الكتاب ثم يبثونه في الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ويمارون فيها من يباريهم في طلبها ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الاكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل والإغراب في الابعاد عن مقاصد التنزيل . ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن اقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل الينا « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » يا ألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به امرتم ؟ وهل عملتم بارشاد القرآن

واهتمديتم بهدى النبي واتبعتم سنته ؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الاعراض عن القرآن وهديه فيا للغفلة والغرور .

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى — أول ما يلحق الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم « الله » تبارك وتعالى يتعلمه بالايان الكاذبة كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا والله ما فعلت كذا ، وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم وذلك بأمرين :

أحدهما — اعتقاد ان آية كذا اذا كتبت ومحت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى وان من حمل القرآن لا يقر به جن ولا شيطان ويبارك له في كذا وكذا الى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة اكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول ان فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (ويا للأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الاضربة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . أقول ونحو هذا ما يعلق على الاطفال من التعاويذ والتناجيس كالخرق والعظام والتمايم المشتمة على الطلسمات

والكلمات الاعجمية المنقولة عن بعض الامم الوثنية : هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه اذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله به.

ثانيهما — الهزّة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارئ رخيماً الصوت حسن الاداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواضعه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا اريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر . لهذا كله يمكننا ان نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعرفة الحق امر عظيم شريف نعم ربما كان اثم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه يكون دائماً ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا اللوم يزلزل ما في نفسه من الاصرار على الباطل .

كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا باي متعلم اليوم ؟ أرايت

أهل جزيرة العرب كيف انضوا الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم
من دقة الفهم التي كانت سبب الانجذاب الى الحق . وأشار الأستاذ الامام
هنا الى البنت الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الاتية على أمرين ونهيين
وبشارتين . ومجمل الخبر ان الأصمعي قال سمعت بنتاً من الاعراب خماسية
أو سداسية تنشد :

استغفر الله لذني كله قتلت انساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ما افصحك فقالت ويحك أيعدّ هذا فصاحة مع
قوله تعالى « وأوحينا الى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في
اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع
في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين .

لما رأى علماء المسلمين في الصدر الأول تأثير القرآن في جذب قلوب
الناس الى الاسلام وأن الاسلام لا يحفظ إلا به ولما كان العرب قد
اختلفوا بالعجم وفهم من دخل في الاسلام من الأعاجم ما فهمه علماء
العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية ودوّنوا لها الدواوين
ووضعوا لها الفنون . نعم ان الاشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة في نفسه

ومادة من مواد حياتها ولا حياة لأمة ماتت لغتها ولكن لم يكن هذا وحده هو الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا . ألف العلامة الاسفرايني كتاباً في الفرق ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم وعدّ من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق التبريز في اللغة وآدابها وبين ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا وأين آثارها في فهم القرآن بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ؟ وقد بينا وجه الحاجة في التفسير الى تحصيل ملكة الذوق العربي والى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها فهم القرآن .

(سورة الفاتحة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ
الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *

سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب (وتكلم
عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب وقالوا ان حديث
النهي عن تسميتها هذا الاسم موضوع . ثم قال : يتكلمون عند الكلام
عن السور على المكي والمدني وهو يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وليس
في الفاتحة ناسخ ولا منسوخ وهي مكية خلافاً لمجاهد فالاجماع على أن
الصلاة كانت بالفاتحة لاول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان في مكة
وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من

المثنائي والقرآن العظيم» وهو مكي بالنص . وقال بعضهم انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة وأخرى بالمدينة حين حولت القبلة وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها أول سورة انزلت بتمامها ثم رجع الاستاذ الامام انها أول ما نزل على الاطلاق ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله .

ومن آية ذلك ان السنة الالهية في هذا الكون سواء كان كون ايجاد أو كون تشريع ان يظهر سبحانه الشيء مجملًا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً وما مثل الهدايات الالهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها مادة حياة تختوي على جميع اصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تسبق فروعها بعد ان تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن وكل ما فيه تفصيل للاصول التي وضعت فيها ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف كقولهم ان أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة وأسرار البسملة في الباء واسرار الباء في نقطتها فان هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول في نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو الى اعدام القرآن خاصته وهي البيان .

قال وبيان ما أريد أن ما نزل القرآن لاجله أمور .

أحدها : التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم يدعي التوحيد .

ثانيها : وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وانذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للامة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزي والشقاء في الدنيا كما وعد في الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها : العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبتته في النفوس .

رابعها : بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها : قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر .

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاخرة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب . فأما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والإئتماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد والإشقاء والإسعاد سواه .

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه بل استكملة بقوله (اياك نعبد و اياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال .

وأما الوعد والوعيد فالأول منهما مطوي في « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة في أول الكتاب — وهي التي وسعت كل شيء — وعد بالاحسان لا سيما وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أي أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذي من سلكه فاز ومن تنكبته هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله (اياك نعبد و اياك نستعين) أوضح معناها بعض الايضاح في بيان الامر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (أهدنا الصراط المستقيم) أي أنه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده وتكون السعادة في الاستقامة عليه والشقاء في الانحراف عنه وهذه الاستقامة

عليه هي روح العبادة ويشبهه هذا قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفي خسر
الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »
فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفتاحة بجملتها
تنفخ روح العبادة في المتدبر لها وروح العبادة هي اشراب القلوب خشية
الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات
اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفتاحة قبل ذكر الصلاة واحكامها
والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال
البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ما وأما الحركات
والأعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ومنح العبادة الفكر والعبرة .

وأما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت
عليهم) تصريح بأن هنالك قوماً تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم
وصانح يصيح ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا
بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه الى الاقتداء بمن كان قبله من الانبياء
« أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » حيث بين أن القصص إنما هو
للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)
تصريح بأن من دون المنعم عليهم فريقان فريق ضلّ عن صراط الله
وفريق جاحده وعانده من يدعو اليه فكان محفوفاً بالغضب الإلهي

والخزي في هذه الحياة الدنيا . وباقي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم
هذا الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين
قاوموا الحق عناداً ، والذين ضلوا فيه ضللاً ، وحال الذين حافظوا
عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت اجمالاً على الاصول
التي يفصلها القرآن تفصيلاً فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في
الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب)
كما نقول أن النواة أم النخلة فأن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها
حقيقة لا كما قال بعضهم ان المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي
بعدها الأولاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أذكر ما قاله الاستاذ الامام في البسملة من حيث لفظها واعرابها وهل هي آية أو جزء آية ومن الفاتحة أو ليست منها فان الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الاستاذ القول فيه اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات .

القرآن إمامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة ارشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » فانها مطلوبة لذاتها .

عندما تقول انني أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لا تعني انك تذكر لفظ « اسم » فلو كان : قولهم ان المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله : هو الصواب لكان ينبغي أن يكون قولك « بالله الرحمن الرحيم » مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » وقوله

تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » وقد قال بعضهم ان الاضافة ههنا للبيان أي أفتتح كلامي باسم هو الله ولكن هذا يقتضي ان يكون لفظ « الرحمن الرحيم » وارداً على اللفظ وهو غير صحيح واردة ان الأسماء الثلاثة هي المبينة للفظ الاسم تحملُ ظاهرُ فما المقصود اذاً من هذا التعبير؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الامم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم اذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخاً عنه يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الامير أو السلطان لان اسم الشيء دليل وعنوان عليه فاذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا عنه أثر ، لولا السلطان الذي به أمر ، أقول ان عملي هذا باسم السلطان أي انه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فمعنى ابتدئ عملي (بسم الله الرحمن الرحيم) أنني أعمل بأمره وله لا لي ولا أعمله باسمي مستقلاً به على اني فلان فكأنني أقول ان هذا العمل لله لا لحظ نفسي وفيه وجه آخر وهو ان القدرة التي انشأت بها العمل هي من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئاً فلم يصدر عني هذا العمل إلا باسم الله ولم يكن باسمي إذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى اني أعمل عملي متبرئاً من ان يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لانني

استمد القوة والعناية منه وأرجو احسانه عليه فلولا لم اقدر عليه ولم
أعمله بل وما كنت عاملاً له على تقدير القدرة عليه لولا امره ورجاء
فضله فلفظ الاسم معناه مراد ومعنى لفظ الجلالة مراد ايضاً وكذلك
كلُّ من لفظ الرحمن والرحيم . وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل
اللغات وأقربه اليكم اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يبتدئون
الاحكام قولاً وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديوي فلان .

ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الاحكام
والآيات وغيرها هو الله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء .

واختصر الاستاذ الامام في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان
الكلام فيها مشهور . قال والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي
معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان الى غيره وهو محال
على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه
الاحسان والله تعالى منزّه عن الآلام والانفعالات فالمعنى المقصود
بالنسبة اليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره
وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وأن الثاني تأكيد
للاول ومن العجيب ان يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وما هي إلا

غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

قال الاستاذ الإمام : وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه ان في القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون ان يكون لها في نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الاخرى تقريراً أو ايضاحاً ولكن الذي لا اجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الاخرى بدون زيادة ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون مما يسمى بالمترادف في عرف أهل اللغة فان ذلك لا يقع الا في كلام من يرمي في لفظه الى مجرد التتميق والتزويق وفي العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها . وأما ما يسمونه بالحرف الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكدها فالباء في قوله تعالى « وكفى بالله شهيداً » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ومعنى وصفها بالزيادة انها كذلك في الإعراب وكذلك معنى « من » في قوله « وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فأمر سائغ في أبلغ الكلام عندما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ونحوها عقيب ذكر كل نعمة وهي عند

التأمل ليست مكررة فان معناها أفبهذه النعمة تكذبان وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو .

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلال النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وبعضهم يقول ان الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً وأما كون افراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من افراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً فهو غير معني ولا مراد . وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ولعل الذي حمل من قال ان الثاني مؤكد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

قال الاستاذ الامام : والذي أقول ان صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فاعيل فانها تدل في الاستعمال على

المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل .
والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله
عز وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين فلفظ الرحمن يدل على من
تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي افاضة النعم والاحسان ولفظ الرحيم
يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى انها من الصفات الثابتة الواجبة .
وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني
مؤكدًا للاول فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه
انه المفيض للنعم فعلاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له
دائماً لأن الفعل قد ينقطع اذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان
كثيراً فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله
تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم ان الله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها
يكون أثرها وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون
ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ★ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

قالوا ان معنى الحمد الثناء باللسان وقيده بالجميل لأن كلمة « ثناء » تستعمل في المدح والذم جميعاً يقال أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً ويقولون ان « أل » التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من افراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار الى كل منهما في فهم الكلام الا بدليل وهو غير موجود في الآية ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه هو أن أي شيء يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال .

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لانشاء الحمد . فأما معنى الخبرية فهو اثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع اليه لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون فصفاته أجمل الصفات واحسانه عم جميع الكائنات ولأن جميع ما يصح ان يتوجه

اليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه إذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك الحمد أولاً وبالذات . والخلاصة أن أي حمد يتوجه الى محمود ما فهو لله تعالى سواء لاحظته الحامد أو لم يلاحظه وأما معنى الانشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الشناء الى الله تعالى في الحال .

(رب العالمين) يشعر هذا الوصف ببيان وجه الشناء المطلق ومعنى الرب السيد المربي الذي يسوس مسوده ويربيه ويدبره و (العالمين) جمع عالم جمعه جمع المذكر العاقل تغليباً وأراد به جميع الكائنات الممكنة أي انه رب كل ما يدخل في مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع الالنكتة تلاحظها فيه وهي ان هذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وانما يطلقونه على كل جملة متميزة لافرادها صفات تقربها من العاقل الذي جمعت جمعه ان لم تكن منه فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات . ونحن نرى ان هذه الأشياء هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذي والتوالد وهذا ظاهر في الحيوان . ولقد كان السيد (أي جمال الدين) رحمه الله تعالى يقول الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهي تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض فهو قائم في مكانه يأكل ويشرب وإن كان لا ينام ولا يغفل .

(الرحمن الرحيم) تقدم معناها وبقي الكلام في اعادةتها والنكته
فيها ظاهرة وهي أن تربيته للعالمين ليست لحاجة به اليهم كجلب منفعة أو
دفع مضرة وانما هي لعموم رحمته وشمول احسانه . وثم نكته اخرى
وهي أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن
يذكرهم برحمته واحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر
الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لها والرحيم الثابت له
وصف الرحمة لا يزايله أبداً فكأن الله تعالى أراد أن يتجنب الى عباده
فعرّفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة هي التي
ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته
منشرة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه
الله من العقوبات في الدنيا وما أعده من العذاب في الآخرة للذين يتعدون
الحدود وينتهكون الحرمات فانه وإن سُمّي قهراً بالنسبة لصورته ومظهره
فهو في حقيقةه وغايته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن
الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية وفي الانحراف عنها شقاؤهم
وبلاؤهم وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم والوالد الرؤوف يربي
ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه اذا قام به وربما لجأ الى الترهيب
والعقوبة اذا اقتضت ذلك الحال والله المثل الأعلى لا إله إلا هو
واليه يرجعون .

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب « مالك » والباقون « مَلِكِ » وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما ان المالك ذو الملك بكسر اللام والمالك ذو الملك بضمها والقرآن يشهد للاولى بمثل قوله « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » وللثانية بقوله « لمن المُلْكُ اليوم » . قال بعضهم ان قراءة مَلِكِ أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبر وقال آخرون ان القراءة الاخرى أبلغ لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وانما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ولا ريب ان مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . و (الدِّين) يطلق في اللغة على المكافأة وورد « كما تدن تدان » وقال الشاعر :

ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة . وعلى الطاعة وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال « دين فلان فلاناً » أي تولى سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف والمناسبات هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل « الدين » لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام وهو اليوم الذي يلقي فيه كل عامل عمله ويوفى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء وكل ما يلاقيه الناس في هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي عليهم ؟ والجواب بلى إن إيماننا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها . والجزاء على التفريط في العمل الواجب إنما يظهر في الدنيا ظهوراً تاماً

بالنسبة لمجموع الامة لا لكل فرد من الافراد فما من امة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه في خليقته الا وأحل بها العدل الإلهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . وأما الافراد فاننا نرى كثيراً من المفسرين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات نعم ان ضمايرهم توبخهم أحياناً وانهم لا يسلمون من المنغصات وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة لا سيما الملوك والامراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب كذلك نرى من المحسنين في أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم الحقوق ولا ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه وان كان قد ينال من الجزاء رضى نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته ولكن ذلك ليس كل ما يستحق وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملاً لا يظلم شيئاً منه كما قال الله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

علمنا الله انه رحيم رحيم ليجذب قلوبنا اليه ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب المطلوب ؟ كلا أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر

الرحمة بذكر الدين فعرفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من
رحمته بعباده أن رباهم بنوعي التربية كليهما الترغيب والترهيب كما تشهد
بذلك آيات القرآن الكثيرة « نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم . وأن
عذابي هو العذاب الأليم » .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

ما هي العبادة ؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للافهام واضحا لا يقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة فان فيها اجمالاً وتساهلاً .

واننا اذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها في المعنى كنخضع وخنع وأطاع وذل نجد انه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي « عبد » ويحل محلها ويقع موقعها ولذلك قالوا ان لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة فتكثر اضافته الى الله تعالى ولفظ « العبيد » تكثر اضافته الى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق و الفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ومن هنا قال بعض العلماء

ان العبادة لا تكون في اللغة الا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه .
يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً حتى يفنى هواه في هواه
وتذوب ارادته في ارادته ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة
ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والامراء فترى من
خضوعهم لهم وتحريم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين ، فضلاً
عن سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع
عبادة فما هي العبادة اذاً ؟

تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة
ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة
للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها .

وقصارى ما يعرفه منها انها محيطة به ولكنها فوق ادراكه فمن ينتهي
الى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال انه عبده وان قبل مواطيء
اقدامه ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعبود ،
أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم الا بالنسبة للذين يعتقدون ان الملك
قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم
للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم

جوهرأ ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية .

العبادة صور كثيرة في كل دين من الاديان شرعت لتذكير الانسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الاعلى الذي هو روح العبادة وسرها ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر انما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا انه منشأ التعظيم والخضوع فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس انساناً .

خذ اليك عبادة الصلاة مثلاً وانظر كيف أمر الله باقامتها دون مجرد الاتيان بها واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « ان الانسان خُلِقَ هلوَعاءً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين » وقد تواعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراعون ويمنعون

الماعون « فسيأثم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون .

وذكر الاستاذ الامام ان الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به وهو ما عليه أكثر الناس فان صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عندما يراه يصلي — يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في أحاديث كثيرة أن من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً وانها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الاخرى أن من شأن الانسان ان يكون منوعاً له الا المصلين .

والاستعانة هي طلب المعونة والمعونة هي سد العجز والمساعدة على اتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه .

ثم تكلم الاستاذ الامام على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى ،
الذي دل عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل ، فقال ما مثاله :

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء
الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا شاركه فيها أحد فيعظم تعظيم
العبادة . وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضاً وهذا يحتاج الى البيان لانه
أمرنا أيضاً في آيات اخرى بالتعاون « وتعاونوا على البر والتقوى » . فما
معنى حصر الاستعانة به مع ذلك ؟

الجواب ، أن كل عمل يعمل به الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول
الاسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية ان تكون مؤدية اليه ، وانتفاء الموانع
التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله تعالى الانسان
بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب
وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من
ذلك ونبذل في اتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعاون
ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر
على كل شيء ونلجأ اليه وحده ونطلب المعرفة المتتممة للعمل والموصلة
ثمرته منه سبحانه دون سواه إذ لا يقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة

لكل البشر على السواء إلا مسبب الاسباب ورب الأرباب، فقوله تعالى: «واياك نستعين» متمم لمعنى قوله: «اياك نعبد» لان الاستعانة بهذا المعنى فزَع من القلب الى الله وتعلق من النفس به وذلك من مخ العبادة فاذا توجه العبد بها الى غير الله تعالى كانت ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله وخصت بالذكر لثلاث يتوهم الجاهل أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله واستعانوا بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس هي كالاستعانة بسائر الناس في الاسباب العامة، فأزاد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة فيما هو في استطاعة الناس بالناس انما هي ضرب من استعمال الاسباب المسنونة وما منزلتها الا كمنزلة الآلات فيما هي آلات له بخلاف الاستعانة في شؤون تفوت القدر والقوى المعروفة في متناول الفهم كالاستعانة على شفاء المرض بما وراء الهواء وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعدة، فان ذلك مما لا يجوز الفزع به لغير الله تعالى صاحب السلطان الاعظم على ما لا يصل اليه سلطان أحد من العالم.

وضرب الاستاذ الامام مثلاً الزراع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الأرض ورّيتها ويستعين بالله تعالى على اتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية، ومثل بالتاجر يحذق في اختيار الأصناف

ويمهر في صناعة الترويح ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك ، ثم قال : ومن هنا
تعاملون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء
حوادثهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك
أعدائهم وغير ذلك من المصالح عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن
ذكر الله معرضون .

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة : «واياك نستعين» الى أمرين عظيمين
هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة
ونجتهد في اتقانها ما استطعنا لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل
بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فطلب المعونة
على اتمامه وإكمالها ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من
أحد على امساكه ومن وقع تحت عبء ثقل يعجز عن النهوض به وحده
يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد است فراغ القوة في الاستقلال به
وهذا الأمر هو مراقبة السعادة الدنيوية وركن من أركان السعادة
الآخروية . وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله
تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكال التوحيد الخالص الذي
يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ويفتك ارادتهم من أسر
الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد

المهيمنين الكاذبين ، من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس
حراً خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله
ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » .

(إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

ذكر الاستاذ الامام أولاً ما قالوه في معنى الهداية لغة من انها
الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب ثم بين أنواعها ومراتبها فقال
ما مثاله : منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته :
(أولاهها) « هداية الوجدان الطبيعي والالهام الفطري » ، وتكون
للاطفال منذ ولادتهم فان الطفل بعدما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء
فيصرخ طالباً له بفطرتة وعندما يصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه .

(الثانية) «هداية الحواس والمشاعر» وهي متممة للهداية الأولى في
الحياة الحيوانية ويشارك الانسان فيها الحيوان الأعجم بل هو فيها أكمل
من الانسان ، فان حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل ،
بخلاف الانسان ، فان ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير . ألا تراه
عقب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الاصوات والمرئيات ثم بعد

مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريباً فيمد يديه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال .

(الثالثة) «هداية العقل» خلق الانسان ليعيش مجتمعاً ولم يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما اعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد .

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام، فحياه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهي العقل الذي يصح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً والصفراوي يذوق الحلو مُراً والعقل هو الذي يحكم بفساد هذا الإدراك .

(الرابعة) «هداية الدين»، يغلط العقل في ادراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته

ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للانسان مع ذلك ان يعيش سعيداً ؟ . وهذه الحظوظ والاهواء ليس لها حد يقف الانسان عنده ، وما هو بعاش وحده ، وكثيراً ما تتطاول به الى ما في يد غيره ، فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض افراده على بعض فيتنازعون ويتدافعون ، ويتجادلون ويتجادلون ، ويتواثبون ويتناهبون ، حتى يفني بعضهم بعضاً ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئاً ، فاحتاجوا الى هداية ترشدكم في ظلمات اهوائهم ، اذا هي غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع في غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب اليها كل ما لا يعرف له سبباً لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث الى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية؟ كلا انه في أشد الحاجة الى هذه الهداية الرابعة — الدين — وقد منحه الله تعالى اياها .

أشار القرآن الى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للانسان في آيات

كثيرة منها قوله تعالى : «وهديناه النجدين» أي طريقي السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ الامام: وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى «وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى» أي دللناهم على طريقي الخير والشر فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما في معناهما ثم قال :

ولكن بقي معنا هداية اخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهي بمنزلة إيقاف الانسان على رأس الطريقين المهلك والمنجي مع بيان ما يؤدي اليه كل منهما وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . أما هذه الهداية فهي أخص من تلك والمراد بها إعادتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين^(١) .

(١) هذا الفرق بين معنيي الهداية معروف في اللغة وبه يحاب عن التناقض الظاهري في قوله تعالى: (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) وقوله تعالى: (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله تعالى: (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) . فالهداية التي اثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق والتي نفاها عنه هي الثانية التي بمعنى الاعانة والتوفيق .

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا، كان محتاجاً الى المعونة الخاصة، فأمرنا الله بطلبها منه في قوله: « اهدنا الصراط المستقيم » فمعنى: « اهدنا الصراط المستقيم » دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ . وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى اياه ، الا لأن حاجتنا اليه أشد من حاجتنا الى شيء سواه .

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة والتفسير ومعنى المستقيم وهو ضد المعوج وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج والتعاريج، بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي اليها، والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة وانما قلنا ان المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل ولكن الأول لا يصل اليها قط بل يزداد بعداً كلما أوغل في السير وانهمك فيه .

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل

والحدود ونحن نقول أنه جملة ما يوصلنا الى سعادتي الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سمي الموصل الى السعادة من ذلك صراطاً وطريقاً ؟ خذ الحق مثلاً وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحاً لان السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها . كذلك الحق الذي يبين لي الواقع في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبهه الحق للعقل والنفس ، سير حسي ، وسير معنوي ، كذلك اذا اعتبرت المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحاً — قسمت أحكام الأعمال الى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهي الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها الى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يريدهم ، وهذا التلاعب بالدين انما يصدر من علمائه . وضرب الاستاذ الامام لذلك مثلاً أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتاباً من وقف أحد الاروقة في الازهر مستحلاله بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وقد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف . واستحلال المحرمات

بمثل هذا التأويل ليس بقليل، ولذلك كان الانسان محتاجاً أشد الاحتياج الى العناية الالهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سيراً مستقيماً يوصل الى السعادة. لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والاحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتغاله على خيري الدنيا والآخرة ، فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله: « واياك نستعين » .

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)
(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الصراط المستقيم هو الموصل الى الحق ولكنه ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة العصر^(١) وانما بينه باضافته الى من سلك هذا الصراط

(١) قد فسر الاستاذ الامام سورة العصر تفسيراً يظهر منه صدق قول الامام الشافعي لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس - تفسيراً لا تجد مثله في كتاب وقد طبعناه على حديثه وثمن النسخة منه ١٢ ملياً .

كما قال في سورة الانعام : « فبهداهم اقتده » ، وقد قلنا أن الفاتحة مشتملة على اجمال ما فصل في القرآن حتى من الأخبار ، التي هي مثل الذكري والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوي في اجمال هذه الآية .

فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى . ونحن نقول ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام علي رضي الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه تربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وان لم تكن أول سورة على الإطلاق فلا خلاف انها من أوائل السور (كما مر في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وما هداهم الا من الوحي ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم فأولئك غيرهم وانما المراد بهذا ما جاء في قوله تعالى : « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن بقدر الحاجة فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص وتوجيه للنظار الى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم ولا شيء يهدي الانسان كالمثلث والوقائع

فاذا أمثلنا الأمر والارشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلمهم وغير ذلك مما يعرض للأمم كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض واجتناب ما كان سبب الشقاوة والهلاك والدمار . ومن هنا ينجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات وتأخذه الدهشة والحيرة اذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ويقولون أنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هذا الدين « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات » .

وهنا سؤال وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا احكام وارشادات لم تكن عندهم وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد وانما تختلف الاحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية وقال تعالى : « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من

بعده « الآية . فالاعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق
بالاخلاق الفاضلة مستوٍ في الجميع وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه
والاعتبار بما صاروا اليه فنقتدي بهم في القيام على اصول الخير وهو
أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة على حسب طريقة
القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول والجمع بين السبب والمسبب .
وتفصيل الاحكام التي هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا ونبينها
عليه الصلاة والسلام .

وأزيد هنا أن في الاسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من
الاصول الخاصة بالاسلام ، ويرى انه مما يستدرك على ما قرره الاستاذ
الامام كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية وبناء الاحكام الادبية
والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار وكيان أن للكون
سناً مطردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة وكالحث على النظر في
الأكوان للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التي يرتقي بها العقل
وتتسع بها أبواب المنافع للانسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن ،
والجواب في هذا انه تكميل لأصول الدين الثلاث التي بعث بها كل نبي
مرسل وجعل بنائها رصيناً مناسباً لارتقاء الانسان ، أما تلك الأصول وهي
الاعتقاد الصحيح ولو بالتسليم وعبادة الله تعالى وحسن المعاملة مع الناس

فهي التي لا خلاف فيها .

وأما قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم) فالمغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافاً عن الدليل ، ورضي بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على هوى غير رشيد ، وغضب الله عقوبته وانتقامه . وقوله : (ولا الضالين) قرن المعطوف فيه بلا لما في (غير) من معنى النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون ايضاً لانهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون الى المطلوب ولا يهتدون الى مرغوب ، ولكن فرقاً بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدي الى اجادة فيها وهم من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق فهؤلاء هم أحق باسم الضالين فان الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية لا يهتدي معها الى المطلوب والعماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ .

والضالون على اقسام : (الأول) : من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة

أو بلغتهم على وجهه لا يسوق الى النظر، فهو لاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرّموا رشد الدين فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها في الحياة الأخرى على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون في الدنيا والاخرة معاً فمن حرم الدين حرم السعادتين وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية وحلّ به من الرزايا ما يتبع الضلال والتخبط عادة سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة تبديلاً . أما أمرهم في الاخرة فعلى انهم لن يساوا المهتدين في منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد .

وأزيد في ايضاح هذا أن الذين حرّموا هداية الدين لا يعقل أن يؤخذوا في الاخرة على ترك شيء مما يعرف بهذه الهداية وهذا معنى كونهم غير مكلفين وعليه جمهور المتكلمين لقوله تعالى في سورة الاسراء: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ومن قال انهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم في الاخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون في ادراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطري وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين في

تكليفهم وعدمه أو يفصل بينها . وما يعطيهم الله تعالى إياه في الآخرة على حسب حالهم في الخير والشر والفضيلة والرديلة يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء .

(القسم الثاني) : من بلغت الدعوة على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعي إليه وانقضى عمره وهو في الطلب وهذا القسم لا يكون إلا أفراداً متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى وينقل صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الأشعري وعلى رأي الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذه الجاحد الذي استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ، ورضي بحظه من الجهل .

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به في أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ومنهم المبتدعون في دين الإسلام وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ففرقوا الأمة إلى مشارب ، يغص بمائها

الوارد ، ولا يرتوي منها الشارب ، (قال) : واني أشير الى طرف من آثارهم في الناس . يأتي الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي العظيم أو بالمصحف الكريم وهو كلام الله القديم أنه ما فعل كذا ، فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم الولاية فيتغير لونه وتضطرب أركانه ثم يرجع في أليته ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ما حلف عليه أولاً ، أنه لم يفعله تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة اذا حلف باسمه كاذباً ، فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع الى الضلال في الاعتقاد بالله وما يجب له من الوجدانية في الافعال . ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقال ، واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثراً ، وأشدّها ضرراً ، خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد .

اذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أو لا يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين ، وأما اذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أولاً فلا يمكننا أن نعرف الهداية

من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون من الموزون به . أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخدولون ، وتاه فيه الضالون .

(القسم الرابع): ضلال في الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ في فهم الأحكام التي جاءت في المعاملات. ولنضرب لذلك مثلاً: الاحتيال في الزكاة، بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه، وظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب لا تخفى عليه خافية ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره وهو محال عليه جل شأنه .

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم فتختل قوى الإدراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم سنة الله في خلقه ولن

تجد لسنته تحويلاً . ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من
العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائدها
وأعمالها مما يخالف سننه ولا يتبع فيه سننه . لهذا علمنا الله تعالى كيف
ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند
حدوده وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا اليه وأن يجنبنا طرق
أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمة بالانحراف عن شرائعه سواء كان
ذلك عمداً وعناداً أو غواية وجهلاً .

إذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ففسدت أخلاقها
واعملت أعمالها وقعت في الشقاء لا محالة وسلط الله عليها من يستذلها
ويستأثر بشؤونها ولا يؤخر لها العذاب الى يوم الحساب، وإن كانت
ستلاقي نصيبها منه أيضاً فاذا تمالى بها الغي وصل بها الى الهلاك ومحي
أثرها من الوجود. لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا
ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد
الأقوام وما به تشقى . أما في الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل
ضال في هذه الحياة الدنيا فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم ويدركه
الموت قبل أن تزول النعمة عنه وإنما يلقي جزاءه « يوم لا تملك نفس
لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

المقالة الأولى

(في أفعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى)

نشرنا هذه المقالة في الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٥٧)
تحت عنوان « سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب » .

رفع سؤال الى مولانا حجة الاسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده
مفتي الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى « وَإِنْ
تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ
عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا »
وقوله تعالى عقيبها « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » فان بينهما
في بادىء الرأي تناقياً ينزه عنه كلام الله تعالى فأجاب (رحمه الله
تعالى) بقوله :

كان بعض القوم بطراً جاهلاً اذا اصابه خير ونعمة يقول أن الله
تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لدنه وساقه اليه من
خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته واذا وصل اليه شر وهو المراد من
السيئة يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي صلى الله عليه وسلم وأن شؤم

وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما في السبب الأول لكل منهما، فينسبون الخير أو الحسنة الى الله تعالى على أنه مصدرها الأول ومعطيا الحقيقي يشيرون بذلك الى أنه لا يد للنبي فيه، وينسبون الشر أو السيئة الى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه هو الذي رماهم بها وهذا هو معنى « من عند الله » أو « من عندك » أي من لدنه . ومن خزائن عطائه ومن لدنك ومن رزاياك التي ترمي بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله : « قل كل من عند الله » أي أن السبب الأول وواضع أسباب الخير والشر المنعم بالنعمة والرامي بالنقم انما هو الله وحده وليس ليمن ولا لشؤم مدخل في ذلك فهو بيان للفاعل الأول الذي يرد اليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم وهو الذي كان يعنيه أولئك المشاقون عندما يقولون الحسنة من الله والسيئة من محمد، أي أنه لا دخل لاختيارهم في الأولى ولا في الثانية وأن الأولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم ، فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل ، الخير والشر في ذلك سواء .

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى في الخير والشر والنعم والنقم،
أما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي من الشر والتمسك
بأسباب ذلك، فالأمر على خلاف ما يزعمون كذلك، فإن الله سبحانه
وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفيننا في توفير أسباب سعادتنا
والبعد عن مساقط الشقاء، فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت
لأجله وصرفنا حواسنا وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير، وذلك إنما
يكون بتصحيح الفكر و إخضاع جميع قوانا لأحكامه وفهم شرائع الله
حق الفهم والتزام ما حدده فيها، فلا ريب في أننا ننال الخير والشر
والسعادة ونبعد عن الشقاء والتعاسة، وهذه النعم إنما يكون مصدرها
تلك المواهب الإلهية فهي من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله لأن
قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل واستعملك لتلك
القوى إنما هو من الله لأنك لم تأت بشيء سوى استعمال ما وهب الله
فاتصال الحسنة بالله ظاهر ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن. وأما
إذا أسأنا التصرف في أعمالنا وفرطنا في النظر في شؤوننا وأهملنا العقل
وانصرفنا عن سر ما أودع الله في شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى
في أفعالنا و جلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادراً
عن سوء اختيارنا، وإن كان الله تعالى هو الذي يسوقه إلينا جزاء على ما

فرطنا، ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك الى شؤم أحد أو تصرفه. ونسبة الشر والسيئات اليها في هذه الحالة ظاهرة الصحة فأما المواهب الإلهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وانما يبطل أثرها اهمالها أو سوء استعمالها وعن كلا الأمرين يساق الشر الى أهله من كسب المهملين وسيئي الاستعمال، فحق أن ينسب اليهم ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسيبه، فقد حالوا بكسبهم بين القوى التي غرزها الله فيهم لتؤدي الى الخير والسعادة وبين ما حقها أن تؤدي اليه من ذلك، وبعدوا بها عن حكمة الله وصاروا بها الى ضد ما خلقت لاجله فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به أن لا ينسب الى كاسبه.

وحاصل الكلام في المقامين أنه اذا نظر الى السبب الأول الذي يعطي ويمنع ويسلب وينعم وينتقم فذلك هو الله وحده ولا يجوز أن يقال أن سواه يقدر على ذلك، ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً لأن نسبة الخير الى الله ونسبة الشر الى شخص من الأشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل، فان الذي يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه، فالتفريق ضرب من الخبل في العقل.

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما

وهب الله فذلك من فضل الله لأنه أحسن استعماله الآلات التي من الله عليه بها، فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه، ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك فلا يلوم من الا نفسه فهو الذي أساء اليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب وليس بسائع له أن ينسب شيئاً من ذلك الى النبي ولا الى غيره فان النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على إتيان ما كان سبباً في الانتقام منه .

فلو عقل هؤلاء القوم الحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير ، فان الله هو مانحهم ما وصلوا به الى الخير وأنت داعيهم للالتزام شرائع الله وفي التزامها سعادتهم . ثم اذا اصابهم شرّ كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله، فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدّبون أنفسهم ليخرجوا من نعمته الى نعمته لأن الكل من عنده وانما ينعم على من احسن الاختيار ويسلب نعمته عن اساءه .

وقد تضافرت الآثار على ان طاعة الله من أسباب النعم وان عصيانه من مجالب النعم وطاعة الله انما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله .

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب فانك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الإنفاق وصرت بذلك غنياً ، فانه يحق لك أن تقول ان غناك انما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للغنى . أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمتك نعمة التمتع به فلا ريب ان يقال ان سبب ذلك انما هو نفسك وسوء اختيارها مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك ، غير أن الأمر ينسب الى مصدره الأول اذا انتهى على حسب ما يريد وينسب الى السبب القريب اذا جاء على غير ما يجب لأن تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها الى مقاصدها انما ينسب الى من حوّلها وعدل بها عما كان يجب أن تسير اليه .

وهناك للآية معنى أدق ، يشعر به ذو وجدان أرق ، مما يجده الغافلون من سائر الخلق ، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرّة وما تمتعت به من لذة حسيه أو عقلية فهو الخير الذي ساقه الله اليك واختاره لك وما خلقت الا لتكون سعيداً بما وهبك ، أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك ، ولو نفذت بصيرتك الى سر الحكمة فيما سيق اليك

لفرحت بالمحزن فرحك بالسار وانما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار
ما لم يختره لك العليم بك المدبر لشأنك، ولو نظرت الى العالم نظرة من
يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو وعلى ما هو عليه لكانت المصائب
لديك بمنزلة التوابل الحريفة ^(١) يضيفها طاهيك ^(٢) على ما يهيء لك من
طعام ليزيده حسن طعم وتشحد منك الاشتها لاستيفاء اللذة واستحسننت
بذلك كل ما اختاره الله لك ولا يمنعك من ذلك من التزام حدوده والتعرض
لنعمه والتحول عن مصاب نقمه ، فان اللذة التي تجدها في النعمة انما هي
لذة التأديب ، ومتاع التعليم والتهديب . وهو متاع تجتني فائدته ، ولا
تلتزم طريقته ، فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة في تحصيله وأن
يلتذ بما يلاقه من تعب فيه يسره كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام الى
مستوى يجد نفسه فيه متمتعاً بما حصل ، بالغاً ما أمل ، وفي هذا كفاية لمن
يريد أن يكتفي اه .

(١) هي ما يطيب به الطعام كالفلفل واحدها تابل بفتح الباء وكسرها .

(٢) الطاهي الطباخ .

المقالة الثانية

(مسألة الغرائيق . وتفسير الآيات)

(نشرت في الجزء الثالث من مجلة المنار للسنة الرابعة)

تمهيد . مصارعة الحق والباطل . رفع الاسلام مقام الأنبياء وحكمه بعصمتهم . عيث عشاق الروايات وإفسادهم في الدين . الروايات واختلافها في مسألة الغرائيق . مخالفة المحققين لها . الرجوع الى أهل العلم الصحيح في إزالة الحيرة . الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة . الطعن في حديث الغرائيق رواية . الطعن فيه دراية . عصمة الأنبياء . الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرائيق . تفسير الآيات على الوجه الموافق لاسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السياق وسابق الآيات . التفسير الأول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة آل عمران في المحكمات والمتشابهات . التفسير الثاني . أمانى الأنبياء . سنة الله فيهم وفي أقوامهم . تأويل ثالث . وسواس الشيطان . اللغات في الغرر وقومانيه . عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة . انتفاء نقل ذلك عن العرب . الجزم بأن الحديث من وضع الأعاجم .

حديث الغرائيق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده في كثير

من كتب التفسير التي تتناولها الأيدي ولو صح لكان أكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذي لا نظر له ، لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وإن كان الفرع فيه ينفي الاصل ، وطلاب العنت يتشبثون بأهداب الشبه فيجعلونها معاول تهدم الأركان الثابتة ، وتنفي القضايا المبرهنة . ولذلك كثر الطعن في هذه الأيام ، بدين الاسلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، وأقوى تكأة لهؤلاء الطاعنين ما قاله بعض المفسرين في مسألة زيد وزينب وفي مسألة الغرائق ومسألة أخرى^(١) . ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، وأكبر العلماء الراسخين ، لجأ القوم الى حكيم الاسلام في هذا العصر ، وامام المسلمين في كل بادية ومصر ، مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، في أن يجلي لهم الحق في المسئلة الأولى فأجاب ، بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه في المنار ، ليشتهر في الأقطار ، ثم سأله آخرون في هذه الأيام عن الثانية ، فأجاب بما أزال الالتباس ، ومحض ما في صدور الناس ، جعل المسئلة أولاً موضوع درس في الأزهر

(١) اعني بهذه المسئلة ما روه من أن النبي سحر وقد حل هذه المسئلة الاستاذ الامام في تفسير جزء عم .

حضره الجماهير ، والجَم الغفير ، ثم كتبها لتُنشر في المنار ، وتُنقل في
الامصار ، وهاك ما جاء من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ
اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ
لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ
آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ
مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْةً أَوْ يُأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

قد يجد الباطل انصاراً ، فيتبوا من نفوسهم داراً ، ويتخذ له منها قراراً ،
وتذهب على ذلك الأيام بعد الأيام ، وتمضي عليه الأعوام إثر الأعوام ، وهو
يلعب بأهله ، ويغلب أهواءهم بحيله ، حتى يقصروا نظرهم عليه ، ولا
يجدوا ملجأ منه إلا إليه ، فاذا اتوا من ناحيته رضوا ، واذا عرض لهم
الحق اعرضوا . ولا يزالون كذلك الى ان تنحل به عراهم ، وتقسد بعلمه
قواهم ، والحق لا يزال يعرض نفسه ؟ يستخدم مرة لينه وأخرى بأسه ،

وهو الشاب الذي لا يهرم، والعامل الصبور الذي لا يسأم، وإنما يعرض بوجهه عن الأغبياء، ويؤلي ظهره الأشقياء، ثم لا ينفك يرحمهم، ولا يبرح يتعهدهم، يسفر عليهم محياه، ويرسل اليهم أشعة من سناه، فإذا وافاهم وقد وهنت مننهم^(١) ومرهت عيونهم^(٢) وحلك ليلهم، واشتد خبلهم، صاح بهم منه صائح، ورحمهم من جنده رامح^(٣) فقلق بالباطل مكانه، وزلزلت من حوله أركانه، وفزع يطلب النصير، وثار يلتمس المجير، فلا يجد إلا أسباباً تقطعت به، وأعضاءاً فت فيها بسبيه^(٤) وقد رنق قومه^(٥) وعبس يومه، فيحملق الى الحق يأخذه ببصره، ويستنزله بنظره، ولكن خاب الظن، وبطل الفن، ثم لا يلبث وهو الباطل أن يتحول عنده اليأس أملاً، ويجد من اليبس بللاً، فيظن وهو هو أن الحق ناصره، وإن ستقوى به أو اصره، فيستنصر بجنده، ويطلب

(١) المنن: جمع منة بالضم، وهي القوة .

(٢) مرهت العين: خلت من الكحل، أو فسدت لتركه .

(٣) رمحه : طعنه بالرمح . والرامح ذو الرمح .

(٤) الفت: الدق والكسر بالأصابع، ويقولون «فت في عضده» إذا كسر قوته وفرق عنه انصاره .

(٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) : أقاموا - وفي الأمر خلطوا الرأي - والطائر خفق بجناحيه ورفرق ولم يطر .

النجدة من عنده ، وأقرب ما يكون خصم الى الهلكة اذا اطمأن الى عدوه ، وأمل الخير في دنوه ، هذا شأن الباطل وأهله ، مع تقلبه في ملله ونخله .

يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهي (القرآن) ما رفع الاسلام من شأن الأنبياء والمرسلين . والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر في الفضائل وصالح الأعمال وتنزيه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسب اليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوهم نحوها من قول أو عمل وخص خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز .

عصمة الرسل في التبليغ عن الله أصل من أصول الاسلام شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق فانما هو في غير الاخبار عن الله وابلاغ وحيه الى خلقه . ذلك الاصل الذي اعتمدت عليه الأديان حق لا يرتاب فيه ملي يفهم ما معنى الدين .

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه

أولئك عشاق الروايات وعبداء النقل . نظروا نظرة في قوله تعالى :
« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » — الآية — وفيما روي عن
ابن عباس (رضي الله عنهما) من أن تمنى بمعنى قرأ والامنية القراءة
فعمي عليهم وجه التأويل الحق على فرض صحة الرواية عن ابن عباس
فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم فقيض لهم من يروي في
ذلك أحاديث تختلف طرقها وتباين ألفاظها وتتفق في ان النبي صلى الله
عليه وسلم عندما بلغ منه اذى المشركين ما بلغ واعرضوا عنه وجفاه
قومه وعشيرته لعيبه اصنامهم وزرايته على آلهتهم ، أخذوا الضجر من
إعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى ان لا ينزل عليه ما
ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم واستنزاهم عن غيهم وعنادهم
فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة « والنجم اذا هوى » وهو في
نادي قوم ، وروي انه كان في الصلاة وذلك التمني آخذ بنفسه فطفق
يقرأها فلما بلغ قوله : ومناة الثالثة الاخرى « ألقى الشيطان في امنيته »
التي تمناها بأن وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط
فمدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهن ترجي . فمنهم من قال انه عندما
بلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرائق العلى ، وان
شفاعتهن لترجي : ومنهم من روى (الغرائقة العلى) ومنهم من روى

(ان شفاعتهن ترتجى) بدون ذكر الغرائقة والغرائيق . ومنهم من قال انه قال: (وانها لمع الغرائيق العلى) ومنهم من روى: (وانهن لهن الغرائيق العلى ، وان شفاعتهن لهي التي ترتجى) . ففرح المشركون بذلك وعندما سجد في آخر السورة سجدوا معه جميعاً .

قال ابن حجر العسقلاني : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة منها وان كانت مرسله يدل على أن الواقعة أصلاً صحيحاً . وهذه الأسانيد الصحيحة — في رأيه — وان كانت مراسيل يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً . ولولا خوف التطويل لأتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم يصح ولكن لا أرى حاجة اليه في مقالي هذا .

روى ذلك ابن جرير الطبري وشايعه عليه كثير من المفسرين وفي طباع الناس ألف الغريب ، والتهافت على العجيب ، فولعوا بهذه التفسير واتخذوها عقدة ايمانهم حتى ظنوا — وبعض الظن اثم — ان لا معدل عنها ولا سبيل في فهم الآية سواها ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها وذهب اليه الائمة في بيانها . حتى ثارت ثائرة الشبه هذه الأيام في نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون ، وأحسوا أن ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع أصل العصمة في التبليغ وان فيه من الحجة العدو

ما لا سبيل الى دفعه، فلجأوا الى أهل العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه ، وتوهموا انهم يقررون لهم ما ألفوا ، ثم ينقذونهم من الحيرة مع ثباتهم على ما حرفوا ، ولكن ضل رأيهم ، وخاب ظنهم ، وسيقامون على المنهج ، ويرون الحق ناصعاً أبلج .

في صحيح البخاري : وقال ابن عباس في « اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » : اذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال أمنيته قراءته « الا أماني » يقرؤون ولا يكتبون . فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فرها بالحديث ، رواية عن ابن عباس ، وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث في رأي ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده (وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس) .

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والأمنية بمعنى القراءة ، مروى عن ابن عباس في نسخة علي بن ابي طلحة عن ابن عباس ورواها علي بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن ابي طلحة ، عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن ابي صالح كاتب الليث وان

المحققين على تضعيفه . هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي أصل هذه الفتنة وقد رأيت أن المحققين يضعون راويها .

وأما قصة الغرائق فمع ما فيها من الاختلاف الذي سبق ذكره جاء في تميمها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفتن لما ورد على لسانه وإن جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ما جئت بك بهاتين فحزن لذلك فأنزل الله عليه « وما أرسلنا » الآيات تسليه له كما أنزل لذلك قوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبنتك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك نصيرا » وفي بعض الروايات : إن حديث الغرائق فشا في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما أرسلنا » الآية . قال القسطلاني في شرح البخاري : وقد طعن هذه القصة وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل عنها : هي من وضع الزنادقة . وكفى في إنكار حديث إن يقول فيه ابن اسحق أنه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق المعروفة عند المحدثين .

وقال القاضي عياض : إن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل

الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وإنما أولع به وبمثله المفسرون
والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح
وسقيم . ثم نقل عن أبي بكر بن العلاء ما يدل على سقم الرواية
واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها بالوهن والسقوط عن درجة
الاعتبار . وقال الامام ابو بكر بن العربي - وكفى به حجة في الرواية
والتفسير - ان جميع ما ورد في هذه القصة لا أصل له .

قال القاضي عياض : والذي ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه
وسلم قرأ « والنجم » وهو بمكة فسجد معه المسامون والمشركون والجن
والانس . وقد يكون ذلك لبلاغة السورة وشدة قرعها وعظم وقعها .
ثم قال القاضي : قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه
وسلم ونزاهته عن هذه الرذيلة إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح
آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى
يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس
منه حتى يفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم
أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر أو
سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته
صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا

سهواً . أو أن يشبه عليه ما يليق به الملك مما يليق الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو أن يتقوّل على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » وقال : « إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (ووجه ثان) وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك . وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجع حاميه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عامه . (ووجه ثالث) انه علم من قادة المنافقين ، ومعاندة المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة وتعييرهم المسلمين والشتمات بهم الفينة بعد الفينة ^(١) وارتداد من في قلبه مرض ممن اظهر الاسلام لأدنى شبهة ، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لو وجدت قریش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم

(١) الفينة كالعيلة الساعة والحين .

الحجة ، كما فعلوا مكابرة في قصة الاسراء ، قال : ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ^(١) ، وما ورد من معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بطلها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك في ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين ، (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك » الآيتان هاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ولولا أن ثبته لكاد يركن اليهم شيئاً قليلاً . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه ان يفترى وثبته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون في أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه صلى الله عليه وسلم قال : افترت على الله وقلت ما لم يقل « وهي تضعف الحديث لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء » . قال القشيري : ولقد طالبه قريش وثقيف اذمر بألهتهم أن يقبل

(١) التشغيب تهبيج الشر .

بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان فعل ، فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن
الانباري : ما قارب الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضي
رحمه الله . وقد أورد بعد ذلك كثيراً من القول في توهين الرواية
وتكذيبها .

أما ما ذكره ابن حجر من القصة رويت مرسل من ثلاثة طرق
على شرط الصحيح وانه يحتج بها . الخ . ما سبق فقد ذهب عليه كما قال في
الابريز ان العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين ، والحديث الذي
يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي وجه جاء وقد وعد الأصوليون
الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الاخبار التي يجب القطع بكذبها ،
هذا لو فرض اتصال الحديث فما ظنك بالمراسيل وانما الخلاف في
الاحتجاج بالمرسل ^(١) وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال
وفروع الاحكام لا في أصول العقائد ومعاهد الايمان بالمرسل وما جاؤا
به فهي هفوة من ابن حجر يفغرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً في بيان فساد هذه القصة وانها
لا أصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتد بذكرها في بعض كتب

(١) الحديث المرسل هو الذي سقط من سنده من بعد التابعي والجمهور
يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز أن يكون الساقط غير صحابي .

التفسير وان بلغ اربابها من الشهرة ما بلغوا وشهرة المبطل في بطله لا تنفخ القوة في قوله ولا تحمل على الأخذ برأيه .

(تفسير الآيات)

والان أرجع الى تفسير الايات على الوجه الذي تحتمله ألفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم .

ولا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن ان قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » ، « الايات » ، يحكي قدراً قدر المرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون دونه ، ويصف شئنه عرفت فيهم وفي أمهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد سَلَطَ الشيطان عليهم ، فخلط في الوحي المنزل اليهم ، ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ . وهذا من أقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لانبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ، فلندع هذا الهذيان ولنعد الى ما نحن بصده .

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الانبياء والمرسلين قبله ليبين له

سنته فيهم . وذلك بعد أن قال : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » — الى آخر الايات . ثم قال : « قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الخ فالقصاص السابق كان في تكذيب الامم لأنبيائهم ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه انني لم أرسل اليكم الا لإنذاركم بعاقبة ما أنتم عليه ولأبشّر المؤمنين بالنعيم وأما الذين يسعون في الايات والادلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ويحبوها عن الابصار ، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لاجله ويعاجزوا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول وذلك بلعبيهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد قائمها كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة — هؤلاء الضالوق المضلون هم اصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد ان ابتلي به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة في الآيات قد ابتلي به الأنبياء السابقون فلم يبعث نبي في أمة الا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادون امانيه

ويحولون بينه وبين ما يبتغي بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا
المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية وذلك
يكون على وجهين :

(الأول) أن يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة وهو
معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان بن ثابت في
عثمان رضي الله عنهما :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر

تمنى كتاب الله أول ليله تمنى داود الزبور على رسل

غير ان الالتقاء لا يكون على المعنى الذي ذكره بل على المعنى
المفهوم من قولك « ألقيت في حديث فلان » اذا أدخلت فيه ما ربما
يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده أو نسبت اليه ما لم يقله تعللاً بأن ذلك
الحديث يؤدي اليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم
لمحاربة الحق يتبعون الشبهة ويسعون وراء الرية ، فالالتقاء بهذا المعنى دأبهم
ونسبة الالتقاء الى الشيطان لأنه مشير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب
بدسائسه ، وكل ما يصدر من اهل الضلال يصح ان ينسب اليه ويكون

المعنى ، وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا حدث قومه عن ربه أو تلا وحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام في وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون في الحق ولا يعتدون بتعجيز المعجزين ، ولا بهزء المهزئين ، الى ان يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجادلة ، فينسخ الله تلك الشبهة ويحتشها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها ، وقد وضع الله هذه السنة في الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتن الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبهة والوساوس فينطلقون وراءها ويفتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاهدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلموا انه الحق من ربك فيصدقوا به فتختب وتطمئن له قلوبهم. والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقر بالعقل في قرارة اليقين ، وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين ، وسواء ارجعت الضمير في « أنه

الحق « الى ما جاءت به الايات المحكمة من الهدي الالهي أو الى القرآن وهو أجلها، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكن .

هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم الله الى الصراط المستقيم ، ولن يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم ، وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع الذين لا تلين افئدتهم ، ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون في متصرفات شئونهم اليه ، حتى تأتي ساعة هلاكهم بغته فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما دهم الاجل فيصيبيهم «عذاب يوم عقيم» يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر ، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر ، فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويسافرون الى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته .

ما أقرب هذه الايات في مغازيها الى قوله تعالى في سورة آل عمران « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشاء به منه ابتغاء الفتنة

وابتغاء تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند
 ربنا وما يذكر الا أولو الالباب». وقد قال بعد ذلك : « ان الذين
 كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود
 النار » ثم قال : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس
 المهاد » الخ.. الايات. وكأن احدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى .
 فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ،
 والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون انه
 الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبث له قلوبهم وان
 الله لهاديهم الى صراط مستقيم ، وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل ،
 ويشغلون بقال وقيل ، بما يلقي اليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرامي
 البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان ، وما يتكوّن عليه من الأموال
 والاولاد لن يغني عنهم من الله شيئاً فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم
 أعمالهم ، فان لم يوافهم الأجل على فراشهم ، فسيغلبون في هراشهم ^(١)
 وهذه ستة جميع الأنبياء مع أمهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع
 الله الانسان الى منزلة يميز فيها بين سعاده وشقائه ، وبين ما يحفظه وما
 يذهب ببقائه ، وكما لا مدخل لقصة الغرائق في آيات آل عمران لا

(١) الهراش: الموائبة والمخاصمة.

مدخل لها في آيات سورة الحج : هذا هو الوجه الأول في تفسير آيات :
« وما أرسلنا » الى آخرها على تقدير ان تمنى بمعنى قرأ وان الأمنية بمعنى
القراءة والله اعلم .

(الوجه الثاني من تفسير الايات) : ان التمني على معناه المعروف
وكذلك الأمنية وهي افعولة بمعنى المنية وجمعها أمانى كما هو مشهور .
قال أبو العباس احمد بن يحيى : التمني حديث النفس بما يكون وبما لا
يكون . قال : والتمني سؤال الرب وفي الحديث « اذتمنى أحدكم
فليتكثر فانما يسأل ربه » وفي رواية « فليكثر » قال ابن الاثير : التمني
تشهي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا
يكون . وقال ابو بكر : تمنيت الشيء اذا قدرته وأحببت ان يصير
الي . وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه فهو يرجع الى ما ذكرنا
ويتبعه معنى الأمنية .

ما أرسل الله من رسول ولا نبي ليدعو قوماً الى هدي جديد أو
شرح سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه ان
كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبياً بعث ليحمل الناس على اتباع من
سبقه إلا وله امنية في قومه وهي أن يتبعوه وينحازوا الى ما يدعوه اليه ،
ويستشفوا من داءهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم باجابة ندائه ، وما من

رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته ، وتصديقهم برسالته ،
منه على طعامه الذي يطعم ، وشرابه الذي يشرب ، وسكنه الذي يسكن
إليه ، ويغدو عنه ويروح عليه ، وقد كان نبياً صلى الله عليه وسلم من ذلك
في المقام الأعلى ، والمكان الأسمى ، قال الله تعالى : « فلعلك باخع
نفسك من آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال « وما أكثر
الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقال : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا
مؤمنين » وفي الآيات ما يطول سرده مما يدل على أمانه صلى الله عليه
وسلم المتعلقة بهداية قومه وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه إلى نور ما
جاء به .

وما من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ألقى
الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ، ووسوس
في صدور الناس وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس ،
فثاروا في وجهه وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ،
وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه ، فإذا ظهروا عليه والدعوة
في بدايتها وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الاتباع ، ضعيف الانصار ،
ظنوا الحق من جانبهم ، وكان فيما القوه من العوائق بينه وبين ما عمده
إليه فتنة لهم .

غلبت سنة الله في ان يكون الرسل من أواسط قومهم أو من المستضعفين فيهم، ليكون العامل في الاذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان، وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى اليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل في رسائله أو يشاركه في نصب شراكه وجباله ، أنصار الباطل في كل زمان هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان والغرور بالزخارف ، والزهو بكثرة المعارف ، وتلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكاة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم ، فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من أضرار هذه الفواتن ، وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل ، وقاما توجد الا عند الضعفاء وأهل المسكنة، فاذا التف هؤلاء حول الداعي وظاهروه على دعوته قام اولئك المغرورون يقولون: «ما نراك الا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » فاذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدل بينهم وبين المؤمنين سجالا افتتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافقتنوا بما أصابوا من الظفر في دفاعهم ، ولكن الله غالب على أمره فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه

الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ، ويثبت دعائمها ، وينشئ من ضعف انصارها قوة ، ويخلف لهم من ذاتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الشيطان هي السفلى ، « فأما الزبدُ فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

وفي حكاية هذه السنة الإلهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين ، تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع التفاتهم الى سيرة من سبقهم ، « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنتم وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب » . هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وانت ترى ان قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز واني انقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال

بعد ذكر امانى الأنبياء في أمهم وطمعهم في إيمانهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

« ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوسوس القاذحة له في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس لأنها لازمة الايمان بالغيب في الغالب وان كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا تقرر هذا فمعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبي وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب امة الدعوة من الوسواوس الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوجدانية والرسالة ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به ، فخرج من هذا ان الوسواوس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً ، غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين » وانت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه تبين الحق بالترجيح .

لو صح ما قاله نقلة قصة الغرائق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضي البيضاوي وغيره، وكان الكلام في الناسخ

كالكلام في المنسوخ، يجوز أن يلقي فيه الشيطان ما يشاء ولا نهدم أعظم
ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ينفر
منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهتهم بأنها
الغرائيق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد ان
ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم الا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند
ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة
كما قال ابن اسحق وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت ولا يخفى أن الغرنوق
والغرنيق لم يعرف في اللغة الا اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض أو هو
اسم الكركي أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل
وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل ،
وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر .
ويطلق الغرنوق والغرائق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات .
ويقال : لمة غرائقه وغرائقية أي ناعمة تقيئها الريح ، أو الغرنوق الناعم
المستتر من النبات الخ . ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام
حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وامراء
الكلام . فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الاعاجم ومحتلقات
الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استبعد منه لضعفاء الاحلام ،

فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية ، عما تقتضيه الدراية ،
« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك
أنت الوهاب » .

(المقالة الثالثة)

(مسئلة زيد وزينب - أو إبطال التنبئ وتفسير الآيات في ذلك)

« منقولة من العدد السابع والعشرين من مجلد المنار للسنة الثالثة »

علم القراء مما كتبناه في وضع الحديث وأسبابه (أي في المنار) أن
من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالصلاح لأجل أن
تقبل روايتهم وان منهم من كان يضع لقصد حسن بحسب ما أداه اليه
فكره القاصر وعقله الضعيف ، وان النتيجة من هذا ان قبول الحديث
لا يصح أن يكون موقوفاً على قوة سنده وضعفه فقط بل تجب مراعاة
أمور أخرى كأنطباقه على قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة
وغير ذلك مما لا محل لشرحه هنا . فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك
كأن كانت لا تنطبق على ما جاء في القرآن أو ما يليق بحلال الله وتنزيهه

وجرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها وعدم قبولها سواء
أطعن بسندها أم لا .

ومما يدخل في هذا الباب ما روي في مسئلة زيد بن حارثة وطلاقه
لزينب (رضي الله عنهما) وان سببه عشق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
لها ، فقد كانت هذه الرواية المشؤومة التي لطخت بها صفحات أكثر
التفاسير ولم ينظر في اخلاها بمقام الرسالة وما يليق بتلك الاخلاق التي
شهد الله لها بالعظمة — شبهة على الاسلام ومجرأة لغير أهله على الخوض
في النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، والاستدلال بذلك على عدم صحة
نبوته حتى لا تكاد تجد كتاباً من الكتب التي ألفها دعاة النصرانية في
الطعن بدين الاسلام وتنفير أهله منه إلا وهذه المسئلة تكأتهم العظمى
فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل أحد فضلاء تونس في هذه الأيام
مولانا حكيم الأمة ، وخاتمة الأمة ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده
مفتي الديار المصرية عن تفسير الآيات الواردة في هذه المسئلة فأجاب
رحمه الله تعالى بهذا الجواب ، الذي هو لب اللباب ، وآية الحكمة وفصل
الخطاب ، وهو بنصه :

« واذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك

واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلم اقضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً .

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى: « وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهما الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة ^(١) فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزلت آية: « وما كان لمؤمن الخ » ، فلم انزلت الآية قال: رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وازاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر كذا يروى .

فنحن نرى من جهة ان زينب كانت بنت عمه النبي صلى الله عليه

(١) يقال خطب فلانة على فلان أي جعلها خطيبة له .

وسلم ريت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول
الأمر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع إياها وإباء أخيها وعد إياها هذا
عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن فكأنه أرغمها على
زواجه لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك ، ولو كان للجمال
سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر
في روائه ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا
يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ولكنه لم يرغب لنفسه ورغبها لمولاه
فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة
لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية .

لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه
بالقريب الى ان تبلغ حد العشق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل
المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض متى تعود بعضهم النظر الى
بعض من بداية السن الى أن يبلغ حداً منه يجول فيه نظر الشهوة
فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له: « ولا تمدن عينيك الى
ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ثم
يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن
كل دنيسة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد أن زوجها

بنفسه لعبد من عبده؟

ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب أننا نجد من ذلك هادياً الى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها .

ذلك ان التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب ، وتعدده اصلاً يرجع اليه في الشرف والحسب ، وكانوا يعطون الدعيّ جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب . وهي عقيدة جاهلية رديئة أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح ، ولا يجري من أحكامه إلا ما له أساس صحيح ، لهذا أنزل الله: «وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» ثم قال: «أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله» الخ. فهذا هو العدل الآلهي

أن لا ينال حق الابن الا من يكون ابناً . اما المتبني والالصيق فلا يكون له الا حق المولى والأخ في الدين . فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعي لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لا قليلاً ولا كثيراً وشدد الأمر حتى قال : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر هذا ابني ، أو ينادي شخص آخر بمثل ذلك لا عن قصد التبني ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك الذي يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة كما كان معروفاً من قبل .

مضت سنة الله في خلقه ان ما رسخ في النفس بحكم العادة لا يسهل عليها التفصي منه ولا يقدر على ذلك الا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات ، فلا يطبّيه الا الحق^(١) ولا يحكم عليه ألف^(٢) ، ولا يغلبه عرف ، ذلك هو النبي صلى الله

(١) اطباء بالتشديد : استماله . قال ابن دريد :

لا يطبيني طمع مدنس اذا استمال طمع أو أطمى

(٢) الألف بالفتح مصدر ألف وما الألف بالكسر فهو الألف أي العشير

المؤانس .

عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأسي به .

لهذا كان الأمر اذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه أو
أحل شيئاً كانت الجاهلية تحرمه ، بادر النبي صلى الله عليه وسلم الى امتثال
النهي بالكفّ عن المنهي عنه والاتيان بضده وسارع الى تنفيذ الأمر
باتيان المأمور به حتى يكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه
النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة ، وتخلص العقول من
ريب الشبهة .

نادى صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بحرمة الربا، وأول ربا
وضعه رباعمه العباس حتى يرى الناس صنيعة بأقرب الناس اليه
وأكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك ما لهم وتنقطع وساوس الشيطان من
صدورهم .

على هذا السنن الآلهي كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر
زينب . كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من
أدعيائهم كما دل على قوله تعالى : (وتخشى الناس) الخ . فعمد النبي صلى الله

عليه وسلم على سنته الى خرق العادة بنفسه وما كان ينبغي له ^(١) ولا من مقتضى الحكمة أن يكلف أحد الأعداء الأبعد أن يتزوج ، ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقة ، ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشمزاز من النفوس ما لا يخفى على أحد . فألهم الله أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالقول الفصل .

لهذا أرغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب أن تتزوج بزيد وهو مولاه وصفيه والنبي يجد في نفسه ان هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي . وبعد أن صارت زينب الى زيد لم يلن إياؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمت بأفنها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه عرقاً وأصرح منه حرية لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتند ويتمكث في تنفيذ حكم الله ولا يعجل ، فكان يقول لزيد: (أمسك عليك زوجك واتق

(١) وقوله ما كان الخ ، أي ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى سنته وحكمته لأن هذا تربية والتربية لا تدور الا على قطب الاسوة ، وفي مسألة الحلق في الحديبية عبرة ومثل فقد خالفوا الامر بالقول حتى حلق فحلقوا .

الله) الى ان غلب أمرُ الله على امر الانفة وسمح لزيد بطلاقها بعد ان مضى العيش معها ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال: (لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهم وطراً وكان أمرُ الله مفعولاً) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً) ، هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتاً على الحق وليدفع عنه ما حاك في صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال: (واذا تقول للذي أنعم الله عليه) بالاسلام (وأنعمت عليه) بالعق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة وتزويجه بنت عمك وتعظه عند ما كان يشكو اليك من ايداء زوجه (أمسك عليك زوجك واتق الله) واخشه في أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذي قلبها وارع حق الله في نفسك ايضاً فربما لا تجد بعدها خيراً منها — تقول ذلك وانت تعلم ان الطلاق لا بد منه لما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك لتكون اسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك وانما غلبك في ذلك الحياء وخشية يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبنّاه فأنت في هذا (تخفي في نفسك ما الله مبديه) من الحكم الذي ألهمك (وتخشى

الناس والله) الذي أمر بذلك كله (أحق أن تخشاه) فكان عليك ان تمضي في الأمر من أول وهلة تعجلاً بتنفيذ كلمته ، وتقرير شرعه ، ثم زاده بياناً بقوله: (فلم اقضى زيد منها وطراً) أي حاجة بالزواج (زوجنا كلها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهم وطراً) لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجحدوا في انفسهم حرجاً من ان يتزوجوا نساءً كنَّ من قبل زوجات لادعيائهم (وكان امر الله مفعولاً) .

واما ما رووه من ان النبي مر ببیت زيد وهو غائب فرأى زينب فوق منها بقلبه شيء فقال : سبحان مقلب القلوب : فسمعت التسبيحة فنقلتها الى زيد فوق في قلبه ان يطلقها الخ... ما حكموه فقد قال الامام ابو بكر بن العربي انه لا يصح وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية لم يقدرُوا مقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها واطال في ذلك ، واذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا في شأن هذه الروايات، قال بعد الكلام في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية وبعد ان جاء الاسلام: « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الاسانيد وانما الصحيح منها ما روي عن عائشة انها قالت: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي

لكنتم هذه الآية: « واذ تقول للذي انعم الله عليه » يعني بالاسلام
« وانعمت عليه » فأعنته « امسك عليك زوجك » الى قوله: « وكان امر
الله مفعولا » وان رسول الله لما تزوجها قالوا: تزوج حليمة ابنة، فأنزل الله:
« ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » الآية، وكان رسول الله تبناه وهو
صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله: « ادعوهم
لآبائهم هو أفسط عند الله » يعني أنه أعدل عند الله، قال القاضي: وما
وراء هذه الآية غير معتبر ، فأما قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها
فوقعت في قلبه فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ
حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في
قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره ، فلم يخطر ذلك
بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن حاشا لذلك القلب المطهر من هذه
العلاقة الفاسدة وقد قال سبحانه وتعالى: « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به
أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » والنساء أفتن الزهراء
وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات
المحبوسات » ثم ساق الكلام في تفسير الآية على حسب ما صح في الواقعة
ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه .

سبحان الله كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات

وقد علموا ان الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في اسلامهم حتى عاتبه على ذلك في قوله : « عبس وتولى » الخ.. الايات ، مع انه لم ينصرف عن الأعمى الا لاشتغاله بما كان يعده في نفسه خيراً للدين ولم يكن رغبة في جاه ولا شرهاً الى مال ولا طموحاً الى لذة ، فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان العتاب على تلك التسييحة بمسمع من زينب ثم على الزواج بعد الطلاق كما أشار اليه في قصة داود عليه السلام . وما كان محمد في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمع نفسه الى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا ان يسمعها ما يدل على شغفه بها ولا أن تضعف عزمته عن قبح شهوته وكبح جماحها وما كان رب محمد يعلل شهوته ويرفه من هواه فيما يخالف امره وهو الذي نهاه ان يمد عينيه الى ما متع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً .

أما والله لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون اليه فان نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ولا يذهب الى النفس منه الا ان العتاب كان على التمهل في الأمر والتريث به وان الذي كان يخفيه في نفسه

هو ذلك الأمر الالهي الصادر اليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له ان يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه اليه في كتابه وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له كما تقدم بياناه . ولم يكن يمنعه عن ابداء ما أبدى الله الاحياء الكريم ، وتؤدة الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة لكن مع معاونة الزمان .

اذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر مني . وذلك اننا كنا نزور احد الاساتذة الاميركانيين في مدينة بيروت ، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى : « الذي احسن كل شيء خلقه » فقال الاستاذ الأميركي : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا الى تلك الحادثة ويعرض بعشقه صلى الله عليه وسلم لزينب (على ما زعموا) فقال له صاحبي : سبحان الله انكم تستغلون بعلوم السموات والارض ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء اليكم ، مع انكم في المشهور عنكم من أشد الناس ولعاً بالبحث في الأديان . ان الله امر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاها ابناً له ليسين للناس بالفعل انه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة

ابناً ، فإن كان المسيح قد دعي في لسان الانجيل بالابن ، فليس هذا على الحقيقة ، وإنما الابن الحقيقي من وُلد من أبيه ولادة صحيحة « ان في ذلك لذكرى للعالمين » والله أعلم .

(المقالة الرابعة في هذه المسألة)

(ايضاح وخلاصة — رد شبهة مسيحي فاضل)

منقولة من ج ٢٩ م ٣

لقد كان لما كتبه مولانا مفتي الديار المصرية في هذه المسألة ونشرناه في الجزء ٢٧ من المجلد الثالث للامار أجمل وقع ، وأجل نفع ، فتشعنت به سحب الشبهات ، وانحلت عقد المشكلات ، وسكنت حركة الشكوك التي كان يشور عجاجها ، وتلاطم أمواجها ، وينهمر تجاجها ، وتندفق أثباجها ، وشفيت أمراض أعياء الاطباء علاجها ، وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمتها وأوداجها ، وهكذا يقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فاذا هو زاهق زائل .

الا ان كلام الاستاذ الامام في علو أسلوبه وبديع تأليفه وتركيبه ، ورسوخ عرقه في الفصاحة ، وبعد غوره في البلاغة ، لم تنجل جميع مقاصده لجميع الأذهان ، ولم تنجل عرائس حسنه لكل من له عينان ،

ومن الناس من أعشاه نوره ، وراعت فؤاده حوره ، فاشتبه عليه سلطان
البرهان ، بسحر البيان ، فتوهم انه مسحور الوجدان ، لا مقتنع العقل
والجنان ، وتخيل انه محتلب بعبارة القلم واللسان ، لا مجتذب ببراعة
الحجة الى قرارة الإقرار والإذعان ، أعني بهذا وما قبله من استزادنا في
المسألة بياناً ، ليزداد الذين آمنوا ايماناً ، ومن قال من فضلاء المسيحيين ،
ان الشبهة لم تنكشف عن غير المسلمين ، وانما غشيتها من فصاحة الاستاذ
وبلاغته ، وبراعته في عبارته ، نور علاظمتها ، وشغل النظر عن تشويه
صورتها ، وان من يضع على عينيه منظاراً ملون الزجاج ، ينكسر به
شعاع البلاغة الوهاج ، يمكنه ان يبصر الطريقة ، ويدرك الحقيقة ، قال
هذا وأنشأ ينتقد كلمات للاستاذ رأى انها اقناعية ، وليست حقيقة واقعية ،
منها قول الاستاذ : «ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان
أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته» الخ . وذهب هذا
المعتز في نقض هذه المسئلة الى ان من البنات من تكون دميمة في
طور البكارة حتى اذا ما تزوجت اكنست حلل الحسن والبهاء ، والجمال
والرواء ، فيحتمل أن السيدة زينب كانت من هذا القبيل ، وان كان في
الوجود أقل القليل .

ومنها قول الأستاذ الإمام : « لم يعرف في مآلوف البشر ان تعظم

شهوة القريب وولعه بالقريب، خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره» الخ..
قال المعترض انه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها الاقرباء بعضهم ببعض
حتى كان من ذلك ما لا خير فيه . وكذلك شأن من أشرب قلبه انكار
شيء أو اثباته يتعلق بالشذوذ ويتشبه بالاستثناء ويترك القواعد العامة
لا يحفل بها . وعهدي باذكاء المسيحيين أنهم يرون أقوى اعتراض لهم
على المسلمين في احتجاب النساء ان الحجاب والمنع من اسباب ازدياد
الرغبة وقوة الداعية الى التطلع والرؤية . وان في الاختلاط أنساً ينتهي
بالملل والزهادة ، كما يقول المطرد في العادة ، لا سيما بالنسبة للاقربين .

ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول بكون
النفوس الى النساء المسلمات المتحجبات ، أميل منها الى النساء
الاوروبيات ، وأكثر تشوقاً ، وأشد تطلعاً ، مع ان الاوروبيات في
الجملة اجمل ، وزينتھن اكمل ، وما ذلك الا انهن معروضات على
الانظار ، مألوفات للأبصار ، وكل معروض مهان ، والمألوف لا
يعظم به الافتتان :

منعت شيئاً فاكثر الولوع به أحب شيء الى الانسان ما منعا
ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك وننظر الى تلك الواقعة من غير
ملاحظة ان من مقتضى الطباع السليمة ، ومن شأن النفوس الكبيرة ، -

التي لا ينكر مناظرنا المسيحي الفاضل ان نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) منها وان انكر نبوته - أن يقع منها الشذوذ بشدة العشق للقريب المألوف بحيث ينتهي الى ان صاحب النفس الكبيرة المتصدي لتأسيس دين وشريعة يزاحم عبداً من عبيده على امرأة زوجته بها لعشقه لها بعد زهده فيها وان يدخل ذلك في الشريعة التي يؤسسها ثم يظهر للملأ ان الله تعالى انبه على ذلك بمثل قوله : « وتخشى الناس والله احق ان تخشاه » . ولو كانت الواقعة كما يتوهم القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه ملوماً وأظهر انه انما ابطل التبني في دينه لحظ نفسه وإرضاء شهوته وجعل هذه الفضيحة مسجلة عليه في الكتاب الذي امر بكتابتها دون سائر كلامه وبشر بأنه ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها وانه يبقى مقروءاً متبعاً ما دام الناس في هذا العالم .

قال مناظرنا ان الاستاذ الإمام كتب للمسلمين وكلامه مبني على التسليم بنبوة محمد ، وهو لا ينهض حجة على النصارى الذين ينظرون في المسئلة نظراً تاريخياً ، وقد ألحنا الى هذا من قبل ولذلك بنينا الكلام على ان محمداً رجل مصلح باسم النبوة تنزلاً جديلاً وان كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوة ليس لهم من الأثر الاصلاحى الديني عشر معشاره . أما كونه مصلحاً فلا ينكره منهم عاقل وقد قال لي الدكتور

فانديك الشهير ، ان مبدأ الاصلاح الذي وضعه محمد هو اعظم المبادئ وأقواها وهو الوحدة في الاعتقاد والاجتماع .. ورأيت بعض من كتب في تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين: قسماً سماه : (ما قبل الاصلاح المحمدي) و قسماً سماه : (ما بعد الاصلاح المحمدي) وكل هذا من البديهيّات فلنرجع الى اصل المسئلة .

المخالف موافق لنا في شيء واحد وهو ان الآيات الواردة في المسئلة متضمنة لابطال التبني الذي كانت العرب تدين به ولكنه يدّعي أن إبطال هذه البدعة لم يكن مقصوداً أولاً وبالذات وانما كان حيلة للتوسل الى تزوج محمد بزینب بعد أن تزوجها عتيقه ومتبنّاه زيد بن حارثة ورآها عنده قد زادت حسناً عما كان يعهد . ولو كان الغرض ابطال التبني وما يترتب عليه من الاحكام الجائرة ، والمفاسد الضائرة ، لعهد بتنفيذ ذلك الى غيره من اتباعه . ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام الأستاذ الإمام أو استلزمها .

(الأول) : من المشهود المعهود في البشر أن العادات والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس أن تتركها لمجرد أمر مصلح لا سيما في أول زمن الدعوة الى الاصلاح ولا يقدم على الابتداء بخرق العادة وتمزيق حجب التقاليد الا اصحاب العزائم الكبيرة وهم المصلحون الذين

يستهدفون لسهام الانتقاد العام ويتحملون في سبيل الإصلاح كل اهانة وسخرية من الدهماء وجماهير الناس ليكونوا قدوة لغيرهم في ذلك وقد اتفق علماء التربية على ان ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسي ، لا القول والارشاد اللفظي ، وكذلك كان شأن النبي (صلى الله عليه وسلم) في كل ما ابطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول في هامش مقالة الاستاذ الإمام بمسئلة الحلق في الحديدية وكيف خالف النبي جميع الصحابة حتى حلق بالفعل فاقتدوا به ومثل الاستاذ بابطال الربا . وليفرض المخالف انه دخل في دين جديد مقتنعاً به ومعتقداً صحته وان القائم بالدعوة الى هذا الدين أمره بأن يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك ، أليس يصعب عليه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته ؟ هذا واننا نرى أهل كل دين قد خالفوا بعض احكام دينهم اتباعاً للعادات التي صارت عامة ويصعب عليهم الرجوع الى الأصل . واذا كان الأمر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقدم على تكليف الناس به بمجرد القول خوفاً من اضطرابهم الى مخالفته التي تفسد العمل وتؤدي الى خلاف المقصود .

(الثاني) لو انه (صلى الله عليه وسلم) عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج الى الأمر بعدة أمور بعضها أشد من بعض ، ومنها ما هو

خلاف تعاليمه الدينية (أحدها) أن يأمر بعض من تُبْنَى بأن يتزوج وربما كان يقل في المسلمين عدد الأدعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للزوج مع أن الذين تبنوهم مسلمون وفي سن قابل للزواج، وربما يقع الأمر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الأمر ، لأنه لم يكن عارفاً بجميع شؤون الناس الخصوصية والمنزلية . على أن من شأن من يجب أن يطاع في كل أمر أن لا يتعرض للأمور الخصوصية المباحة الا بالنسبة لأقرب الناس اليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهذا الوجه أهون مما بعده.(ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والأمر بالطلاق منكر وانما أباحه الشرع للضرورة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في التنفير منه: « أبغض الحلال الى الله الطلاق » رواه ابو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه وبين المتزوج بها من الالفة والمحبة ما يصعب معه الفراق ، ويتعاضى به الخضوع لأمر الطلاق، (ثالثها): أن يأمر من كان تبني هذا المطلق بأن يتزوج بالمطلقة ويتوقع في هذا الأمر أمور منها ، أن هذا المتبني قد تنفر نفسه منها لذاتها بأن يستبشع صورتها أو يكون عارفاً من طباعها ما لا يمكنه معه معاشرتها ، وقد يكون متزوجاً بغيرها ولا يستطيع الجمع بين امرأتين ثم ان هنا ملاحظة أهم من كل ما ذكر وهو ان تعدد الزوجات مشروط في القرآن بعد الخوف من

ترك العدل بين الزوجات ولا شك ان الذي يريد التزوج بامرأة متبناه
لمجرد الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يخاف من عدم العدل بين
الزوجة الجديدة التي يأخذها كارهاً وبين الأولى التي كان ألفاً لها
ومستأنساً بمعاشرتها وعند ذلك لا يصح النكاح. (رابعها): انه قد يرضى
هو ولا ترضى هي لأنها فتية وهو شيخ مثلاً ولا يخفى شيء من هذه
الأمور على ذلك الرجل العظيم الذي جاء بتعاليم وأعمال قلبت هيئة
الأرض وغيرت نظام الامم سواء كان نبياً (كما هو الواقع) أو لم يكن
كما هو رأي المخالف.

(الوجه الثالث) ان هذا المصلح الحكيم اختار صورة لا بطلان
تلك العادة الدينية الجاهلية خالية من كل المحظورات المشروحة في الوجه
الثاني وذلك بأن يزوج متبناه بامرأة يقضي العقل بأن يختار هو واياها
الفراق عن رضى لعدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولا شك انها ترضاه لما
هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان.

(الوجه الرابع): ان الذي يدل مع ما تقدم على ان الأمر مقصود
للنبي صلى الله عليه وسلم منذ خطب زينب لزيد (رضي الله عنهما)
الحاحه فيه وعنايته الكبرى به. وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن

وتزوج بعدة نساء ولم يذكر في القرآن شيء من ذلك لأن القرآن كما قلنا لم يذكر فيه إلا أهم المهمات في الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها فعدم مبالاته بإبائها وتمنعها وإبائه أخيها لا يمكن ان يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد لأن العقل قاض بأنه لا ينعم له معها بال مع هذا النفور والإباء وما هو معلوم من أنفة أشرف العرب ، كبنى هاشم وبني المطلب ، وهي من صميمهم وكانت لا ترى لها كفواً إلا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق لهذا الإلحاح والتحتيم عليها بالرضى به إلا قصد ابطال تلك البدعة الذميمة بأقرب الوجوه وأبعدها عن الضرر والضرار .

(الوجه الخامس): ان السورة التي ذكرت فيها القصة جاء في فاتحتها: « وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » الآية . وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » فقد أبطل التبني بالقول ولم يعمل بمقتضاه أحد قبله (صلى الله عليه وسلم) فهذا التمهيد ، مع ذلك التشديد ، برهان كاف على ذلك القصد الحميد . ومناف لزعم الزاعمين ان قصد النبي صلى الله عليه وسلم الى التزوج بزینب كان بعدما رآها في

بيت زيد رضي الله عنه . وفي هذا كفاية لغير المعاند والله أعلم .

نشرنا هذه المقالة في الجزء التاسع والعشرين من مجلد « المنار »
الرابع بعد مناظرة في مقالة الاستاذ الامام بيني وبين أحد فضلاء
المسيحيين كما علم من صدر المقالة .

(المقالة الخامسة - في زعمهم ان النبي سحر)

هذه المسألة من أكبر مطاعن الكفار في الاسلام ، وفي نبوة النبي
عليه الصلاة والسلام ، وقد أشرت اليها من قبل ولم أصرح بها في المنار
لاني كنت عازماً على تفنيد هذه المطاعن في وقت آخر ثم ان الاستاذ
الامام رحمه الله تعالى كتب تفسيراً لجزء «عم» وبين الحق في هذه المسألة
في تفسير سورة الفلق منه ، فرأينا أن نضم ما كتبه فيها الى هذا المجموع
ليكون سيفاً في يد المطالع يقدر به جميع الشبهات التي جعلوا لها أصلاً
من القرآن ، وهالك ما كتبه في اثناء تفسير السورة ، جزاه الله عن دينه
افضل الجزاء ، قال :

« وقد رووا هنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره
ليبدن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا

يفعله أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه وإن الله أنبأه بذلك وأخرجت مواد
السحر من بشر وعوفي النبي صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك
ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر
إلى أن يظن أن من يفعل شيئاً وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض
في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور
العادية ، بل هو مساس بالعقل آخذ بالروح وهو مما يصدق قول المشركون
فيه : (أن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) وليس المسحور عندهم إلا من
خولط في عقله وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع فيخيل إليه أنه يوحى
إليه ولا يوحى إليه ، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي
النبوة ولا ما يجب لها ، إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح
فيلزم الاعتقاد به وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من
إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر . فأنظر كيف ينقلب الدين
الصحيح والحق الصريح في نظر المقلد بدعة نعوذ بالله ، يحتج بالقرآن على
وجود السحر ، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه صلى الله عليه
وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك
مع أن الذي قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون إن الشيطان

يلابسه عليه السلام وملا بسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب
من ضروبه وهو بعينه أثر السحر الذي نسب الى لييد فانه قد خالط عقله
وادراكه في زعمهم .

والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وانه كتاب الله بالتواتر
عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبت به وعدم
الاعتقاد بما ينفيه ، وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب
القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم
هذا فاذن هو ليس بمسحور قطعاً وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد
والآحاد لا يؤخذ به - في باب العقائد وعصمة النبي من تأثير السحر في
عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين ولا يجوز أن
يؤخذ فيها بالظن والمظنون على ان الحديث الذي يصل اليه من طريق
الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على
انه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة وعلى أي حال فلنا بل علينا أن
نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب
وبدليل العقل فانه اذا خولط النبي في عقله كما زعموا جاز عليه ان يظن
أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه والأمر
ظاهر لا يحتاج الى بيان . ثم ان نافي السحر بالمرّة لا يجوز أن يعد مبتدعاً

لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله: « آمن الرسول » الآية وفي غيرها من الآيات ، ووردت الأوامر فيما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على انه مما يجب الايمان بشبوته أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ملة بل الذي ورد في الصحيح ، هو ان تعلم السحر كفر فقد طلب منا أن لا ننظر بالمرء فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه ، وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، فان السحر في اللغة معناه صرف الشيء عن حقيقته، قال الفراء في قوله تعالى: « فاني تسحرون » أي أنى تؤفكون وتصرفون سحره وأفكه بمعنى واحد ، وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذي يفرق بين المرء وزوجته ، تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التي تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجها ، وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الاساتذة ونحن نرى أن كتباً ألفت ودروساً تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل و اظهار الأمر في أقبح صورة أي بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الفساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه

وسياق الآية لا يأباه وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمي الله
خبثاء الانس المنافقين بالشياطين ، قال « واذا خلوا الى شياطينهم »
وقال : « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض » وسحر سحرة
فرعون كان ضرباً من الحيلة ولذلك قال : « يخيل اليه من سحرهم انها تسعى »
وما قال انها تسعى بسحرهم ، وقال يونس ، تقول العرب ما سحرك عن
وجه كذا أي ما صرفك عنه ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره
ويعرفون من اللغة ما يكفي لعاقل ان يتكلم ما هذروا هذا الهذر ولا
وصموا الاسلام بهذه الوصمة ، وكيف يصح ان تكون هذه السورة نزلت
في سحر النبي صلى الله عليه وسلم مع أنها مكية في قول عطاء والحسن
وجابر ، وفي رواية ابن كريب عن ابن عباس وما يزعمونه من السحر انما
وقع في المدينة ، لكن من تعود القول بالمحال ، لا يمكن الكلام معه
بحال ، نعوذ بالله من الخبال .

يقول محمد رشيد جامع الكتاب ، لا يوجد مطلع على المذاهب
المتبعة الا وهو يعلم ان اهل كل مذهب قد تركوا الأخذ ببعض
الأحاديث التي رويت في الصحاح كصحيح البخاري ومسلم لأقوال أئمتهم
المبني بعضها على القياس فترك حديث آحادي منها لدفع شبه الكافرين
عن النبوة موافقة للقرآن القطعي أولى . ومن الغرائب أن وجدنا بعض

الكفار المعترضين على الاسلام في هذه المسألة يقتنعون بنفي القرآن
للسحر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويرونه حجة على الرواية وبعض
المسلمين يعسر عليه ذلك ولا ندري بماذا يحج المعترضين بعد الاعتراف
لهم بسحره وهم لا يقلدونه بأن ذلك لم يؤثر في روحه الشريفة . وقد قال
العلامة ابن القيم ان الأرواح العالية لا يؤثر فيها السحر « والله يهدي من
يشاء الى صراط مستقيم » . وقد تم الكتاب والحمد لله رب العالمين .

٢٧ رمضان سنة ١٣٢٣ هـ